

المخرج المسرحي أمام سور النقد العظيم



أحمد الماجد

استفاد الناقد المسرحي في تطوير مناهجه من العلوم الإنسانية، وأصبح أكثر تخصصاً من ذي قبل، متجاوزاً المناهج الانطباعية والنفسية والاجتماعية والتاريخية، وانعكس ذلك على مجمل التصورات العامة لفن المسرح، وبضمنها عمل المخرج، وقدرة الناقد على التأويل والإشارة إلى معانٍ خفية، بحيث تصبح فاعلية عمله منطلقاً من تفسيره للعرض المسرحي.

من جانب آخر، بات دور مخرجي المسرح في الوقت الراهن أكثر سعة وتعقيداً، بالنظر لوجود المدارس الإخراجية المتعددة، وكذلك القراءات النقدية المتعددة، والنصوص المسرحية الكثيرة التي تتطلب دراستها دراسة وافية، ودخول التكنولوجيات والتقنيات في بنية العرض المسرحي، ومع تطور علم المسرح، شأنه شأن باقي العلوم الأخرى، توجب على المخرج مضاعفة جهوده

• روح التنافس

من هنا جاء النقد كضرورة لا غنى عنها، مثل علامة دالة ترشد إلى جوانب لم يكن المخرج على وجه الخصوص قد فطن لها، فضلاً عن أن النقد يشعل روح التنافس بين الفنانين ليرتقي بأعمالهم، وكذلك يكشف عيوب المنتج المسرحي ويمهد في أحيان إلى اكتشاف أشكال جديدة للعمل المسرحي، إلا أن كل ذلك لا يمكن أن يكون ما لم تكن العلاقة بين المخرج والناقد على وفاق ووثام ورضا، وكذلك قبول واقتناع بأطروحات الآخر، فأن أختلف معك لا يعني أنني أكرهك، وأن أخالف رأيك وما ذهبت إليه لا يعني أنني أحيلك إلى عدم وكأنك لم تكن.

والنقد لا نقصد به النقد الصحفي، أو النقد الانطباعي، من فهذين الصنفين من النقاد هما في حالة وثام متبادل مع المخرجين، إذ إنهما يكتفيان بملامسة سطحية عامة للعرض المسرحي، من دون الدخول إلى عمق وتفصيل العرض، ويحدثان أحياناً تشويشاً على فهم القارئ، في حين أن أسس النقد الحقيقية تقوم على دور الناقد في خدمة المجتمع والثقافة المسرحية بحكم أنه الحكم بالنسبة للعروض، وهو قارئ أكثر وعياً وخبرة وإماماً بالأفكار والتقنيات، وعدد لا بأس به من النقاد المسرحيين بلا رؤية للأمر، ويكتفون بتقديم وجهة نظر انطباعية وقراءة صحفية عن العرض المسرحي، فغياب الناقد المسرحي المتخصص في الندوات التطبيقية التي تلي العروض، وفي الصحافة على وجه الخصوص، وتولي المحررين الثقافيين مهمة النقد المسرحي من دون أن تكون لهم دراية نظرية ولا تطبيقية بالمسرح، هو ما يجعل ما يكتب في الصحافة من نقد مسرحي فاقداً للموضوعية في كثير من جوانبها.

فمنذ أن ولد النقد، والعلاقة على طرفي نقيض بين المخرج والناقد، فالأول صانع، والثاني باحث عن أوجه ومكامن الخلل التي تركها الصانع وراءه مندون أن يتمها، فلا هذا يرضى بفضح عثراته، ولا ذاك يقبل بالتغاضي عنها، فيحتمل الصراع بينهما حتى يصل حد القطيعة المبطنة، أو العداوة الكامنة التي قد تنفجر في لحظة، وكم من ناقد وُصف بالعتة أو الخرف، لأنه قال رأيه الصريح بالعرض، وكم من مخرج وُجه إليه أحد السهام لكون رؤيته لا تتفق مع هوى الناقد. من أجل ذلك، ومن أجل التوفيق بين الناقد المعترف برأيه، والمخرج المتمسك بأدواته، وجب السعي في عقد هدنة، أو إقامة صلح بينهما عبر تغيير مفهوم النقد عند الاثنين، من كونه ساحة للصراع ونثر العثرات على الطرق، إلى كونه منطقة للنقاش والتحليل والتفسير والتأويل.

• مدارس

إن مهمة الناقد المسرحي اليوم أكثر عسراً من أية مهمة نقدية تشمل قطاعاً ثقافياً أو فنياً آخر، باعتبار أن المسرح مجموعة مكونات كثيرة، مدارس وفلسفات ومكونات متباينة ومفردات وأشخاص وموسيقى وإضاءة وأصوات ومفاهيم وأفكار وقوالب، وغيرها، كلها تجعل المهمة في صميم المسؤولية الخطيرة وتحتاج إلى قدرات واعية كبيرة، إن لم نقل إلى مؤسسات تعنى بهذا الفن العظيم.

إن المخرج المسرحي المنظم، هو الذي يراه الناقد في كل شيء، في الديكور والمؤثرات الصوتية والإضاءة، وفي المشاهد الجماعية، ويدخل في اختصاصه جميع عناصر العرض المسرحي، وفي مقدمتها إبداع الممثل الذي يجب أن ينسجم مع بقية العناصر في كل واحد متكامل.

ويرى المخرج الروسي الشهير الكسي بوبوف، أن على المخرج حشد الجهود العامة والفردية في سبيل تحقيق الخطة الفكرية والفنية الموحدة للعرض المسرحي، وهي تتحقق من خلال فن التكوين الإخراجي، فهو مدعو لأن يعطي كل صور العرض المسرحي توافقاً عاماً، وجميع الأفعال الدرامية فيه منطقية مشروعة، والمخرج مثله مثل الكاتب والرسام غني بالوسائل التعبيرية، غير إن امتلاك حرية التعبير الفني عند المخرج أمر في غاية الصعوبة، ذلك أن وسيلة فنه مادة حية ومعقدة هي الإنسان، الممثل.

من هنا نرى أن المخرج المسرحي الواعي والمتمكن من أدواته، هو ناقد بنفسه، غير إن قربته من العرض المسرحي

واندماجه فيه وانصهاره في تفاصيله، يجعله بحاجة إلى عين أخرى تنظر إلى العرض بحياد ومحبة، وهي بما لا يقبل الشك أو الجدل عين الناقد. المخرج المسرحي يختار طرق التفسير والتأويل للنص فيبدع عرضاً مسرحياً، بينما يسلك الناقد المسرحي عادة طرق التحليل، أي تحليل ما آل إليه تفسير المخرج. وهو تفسير ليس محددًا بشروط وهو غير محدد بقواعد ثابتة، أو جامدة، إنه الاجتهاد الإبداعي الذي يوظف طاقات ومفاهيم لم تفكر يوماً أي من القواعد الثابتة والمعايير باحتوائها والسيطرة عليها، أو بإدخالها ضمن منظومتها الفكرية الخالصة والجاهزة، أما تحليل الناقد فيعتمد آلية قد لا يحيد عنها: الشروط والأهداف والغرض والوظيفة.. الخ. كما أن الإبداع يكون على الدوام وليد عملية التفسير والتأويل، والنقد الذي يعتمد التحليل دون سواه يلحق دائماً بركب الرؤى الإخراجية الإبداعية فيعيد دائماً حساباته مع النص المسرحي ومع العرض المسرحي.

• منهجية

إن منهجية الناقد وشفافيته ومهنيته وخبرته واحترامه لمصداقيته وعمله، وكذلك سعة صدر المخرج والنظر إلى العمل المسرحي على أنه منطقة للنقاش والبحث، هي ما ستديم العلاقة الصحيحة بين مخرجي المسرح ونقاده، وستبني سوراً يحمي المنتج المسرحي من الفوضى والانتكاء على الفرضيات الثابتة والأشكال الجامدة